موقف المانيا ازاء الاحتلال الانجليزي لمصر *

بقلم الدكتور محمد مصطفى صفوت
الاستاذ المساعد للتاريخ المعاصر بالكلية

لم تكن للدولة الالمانية التى نشأت حديثا مصالح حيوية هامة فى مصر تدعوها جادة إلى أن تبث العراقيل فى وجه انجلترا أو تناهض السياسة التى ارتسمتها الحكومات البريطانية لنفسها في وادى النيل. لقد كانت مسألة مصر أول الأمر مرتبطة في ذهن المستشار الامبراطوري الألمانى بمسألة بقاء الدولة العثمانية ومصيرها. ولم تكن السياسة التي اختطها بزمرك Bismarck في السنوات العشر التي تلت سنة ١٨٧١ — وهى السنة التى تمت فيها الوحدة الألمانية بالدم والحديد — سياسة المحافظة على كيان الدولة العثمانية أو تحقيق سلامتها ، فلقد صرح فى أحاديث متعددة له ، وذلك حين ثارت المشكلة الشرقية ثورتها العنيفة فى سنة ١٨٧٦ بأن ليس للحكومة الألمانية مصالح مهمة تدعوها للتدخل في شئون الدولة العثمانية الداخلية منها أو الخارجية ، وأنه لا يرى لمسيحيي هذه الدولة أو لمسلميها على السواء ، فمصير هذه الدولة ، كما قال مرة منهكما ولكن جادا لا يدعوه لأن يبذل في سبيله دم جندى بروسي واحد ، وأن كل ما يهمه في هذه الأزمة المستحكمة المعقدة المصاعب هو أن يضع نفوذه العظيم فى خدمة أصدقائه من الدول الأوربية الكبرى وليست الدولة العثمانية واحدا منهم (١)

* انظر المراجع فى آخر البحث

(١) الوثائق الالمانية Grosse Politik . بيلوف Buelow وزير الخارجية الالمانية الى منستر Munster السفير الالماني فى لندن ؛ يناير سنة ١٨٧٦

وبزمرك هو الذى دعا الانجليز مرارا، سراوعلانية لأخذ مصر ، وهو الذى عمل علي تثبيت أقدامهم فيها ، وعضد سياسة الاحتلال فى سنة ١٨٨٢ ، فأيد سياسة انجلترا تأييدا لاتشوبه شائبة ، ونصرها نصرا مبينا ، وجعل من مسألة مصر وسيلة قوية لربط انجلترا بدول التحالف الثلاثي ، ذلك التحالف الذى كونه من المانيا والنمسا والمجر وإيطاليا لرعاية الوحدة التى أنشأها فى ميادين القتال : سدوا وسيدان ، وللمحافظة علي مركز المانيا المتفوق في أوروبا .

* * *

لقد اهتمت الحكومة الامبراطورية الألمانية لأول مرة بالمسألة المصرية حين ثارت المشكلة الشرقية فى أوائل الربع الأخير للقرن التاسع عشر . فالمستشار الألمانى يري أن مصر جزء من هذه المسألة لا ينفصل عنها ، وهو لا يهتم بالمسألة المصرية لقيمتها فى ذاتها أو لمصالح ألمانيا فيها ، وإنما هو يهتم بأمر مصر كوسيلة يسترضى بها الحكومة البريطانية التى ما برحت تنظر إلي ما لألمانيا من مركز متفوق فى أوربا بعين تنم عن جانب كبير من الحسد والحقد وتهاب شوكتها ، ولذا فهو من أول فرصة ينعي علي الحكومة الانجليزية عدم إسراعها إلي استغلال هذه الأزمة الشرقية، هذه الفرصة الثمينة فى نظره ، ويرى أنه ينبغى لها أن تفكر جديا من الآن في أخذ نصيبها من الأسلاب التى تراكمت نتيجة لضعف الدولة العثمانية المتزايد وتدهورها ، ويرى أن خير مكان وأنسب بقعة تستطيع أن تذهب إليها انجلترا ويمكنها أن تروى غليلها منها هى وادي النيل .

فهو قد اقتنع تماما بضرورة تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بين أصدقائه من الدول الكبري ، ورأى فى هذا التقسيم خير طريق للمحافظة علي السلام فى أوربا وعلي السيطرة الألمانية فيها ، فتأخذ صديقته النمسا والمجر البوسنة والهرسك أى تسيطر علي غربي البلقان تقريبا ، وتهيمن روسيا علي شرقيه وينفذ نفوذها إلى المضايق البوسفور والدردنيل ، وتضم انجلترا مصر بالاتفاق مع فرنسا ، فمصر بموقعها

الجغرافى الممتاز ومواردها التي لا ينضب معينها كافية في نظره لأن تعوض انجلترا عما تقتطعه روسيا من ممتلكات الدولة العثمانية فى البلقان .

وليس صحيحا من الناحية التاريخية ما يزعمه الاستاذ سيتون واطسون Seton Watson. ، استاذ الدراسات الصقلية فى جامعة لندن ، من أن بزمرك أراد من وراء هذه السياسة إصابة عصفورين بحجر واحد : إرضاء انجلترا من ناحية، وإفساد العلاقات الانجليزية الفرنسية من ناحية أخري(١)، فسيظهر من خلال هذا البحث أن بزمرك كان مخلصا فى ذلك الوقت (من سنة ١٨٧٧ إلى ١٨٨١) في العرض الذى قدمه للحكومة الانجليزية ، وأنه فى نفس الوقت كان يعمل على خلق جو من التعاون السياسى بين الدولتين الغربيتين خارج حدود القارة الأوربية .

حرص بزمرك إذن حرصا كبيرا علي أن يوجه انتباه الحكومة البريطانية الى انتهاز هذه الفرصة ، فرصة قيام المسألة الشرقية ، ففي مذكرات له سطرها بعناية كعادته لوزارة الخارجية الألمانية فى خريف سنة ١٨٧٦ يرى أنه إذا استشير فيما يجب أن تكون عليه سياسة انجلترا الخارجية . فانه يقترح أن تنتهج انجلترا نفس السنن الذى تنتهجه روسيا ، فاذا كانت روسيا تبغى أن تستحوذ علي النقط الحربية والاستراتيجية الضرورية لها وذلك بالسيطرة على المضايق البوسفور والدردنيل والاشراف على الآستانة ، فعلي الحكومة الانجليزية أن تقابل ذلك بالسيطرة علي مصر وقناة السويس ، فهو إذن يري أن يكون موقف انجلترا في وادى النيل مشابها لموقف النمسا علي الأقل بأزاء الولايتين العثمانيتين المتاخمتين لها . البوسنه والهرسك ويري فى ذلك الحل حلا سلميا للمشكلة الشرقية معقولا ومقبولا وينطوى علي شيء كبير من الحكمة وبعد النظر ، وهو حل خير فى نظره من معارضة انجلترا لتوسع روسيا فى البلقان وقيام حرب شعواء بينهما قد تتحول إلى حرب أوربية عامة طاحنة

(١) فى كتابه Disraeli and Gladstone and The Estern Question ص ٣٠٩

تعصف بما لألمانيا من مركز متفوق في أوربا ، فكما يقول « إنه من الخير لبريطانيا العظمى أن تأخذ قناة السويس والاسكندرية ، بدلا من أن تعلن الحرب على روسيا، وبهذا وحده تتوثق عرى السلم فى أوروبا» (١).

وهو يرى أنه إذا خشيت الحكومة الانجليزية من اتباع مثل هذه السياسة مناوءة فرنسا وعداءها ، فما عليها إلا أن تبحث مع الفرنسيين أمر تقسيم الشرق الأدنى إلى مناطق نفوذ ، فتوافق فرنسا على تفوق النفوذ الانجليزى في مصر نظير موافقة الانجليز على تفوق النفوذ الفرنسى في سوريا ، وبذا ترضى فرنسا . وكان بزمرك يرى أن الغلبة والتفوق فى النهاية سيكون للدولة الممتازة من الناحية البحرية والأكثر مرونة فى الاستعمار(٢).

ولم يقتصر بزمرك على عرض هذه الفكرة على حكومة دزرايلى المحافظة بل أرسل إلى سفيره فى روسيا شفينتس Schweinitz يطلب منه أن يعرض على الحكومة القيصرية الروسية فكرة أخذ الانجليز لمصر ليعرف ماذا يكون موقف روسيا ، فهو يعتقد أن من الضرورى أن توافق روسيا على هذه الفكرة إذا أرادت ألا تقاوم انجلترا رغبة الروس فى السيطرة على القسطنطينية والمضايق البوسفور والدردنيل(٣).

وليس من العجيب أن يجد أمرا صوابا وحكيما زيارة نوبار باشا للندن في ربيع سنة ١٨٧٧ لتمهيد الطريق لبسط حماية انجليزية على مصر(٤)، ويكرر بزمرك بأنه

---

(١) الوثائق الالمانية .
(٢) نفس المرجع ٢٠-أكتوبر سنة ١٨٧٦
(٣) نفس المرجع بيلوف الي شفينتس .
(٤) كما يعلق على رسالة أرسلها له سفيره فى لندن بتاريخ ٤ ابريل سنة ١٨٧٧ وكان نوبار قد قام بهذه المهمة دون أن يكون الخديو على علم بها وما كان مطلقا ليوافق عليها أو يرضاها ، ولقد لجأ نوبار الى عرض هذه الفكرة على الحكومة الانجليزية حين توترت العلاقات بينه وبين الخديو — أنظر الوثائق الألمانية .

نصح وما انفك ينصح لبريطانيا العظمى بأخذ مصر ، وأن هـذه الخطوة هى خطوة مباركة في نظره ، هى أجل خدمة تستطيع انجلترا تقديمها للسلام في أوربا ، فالمستشار الألماني يخشي قيام حرب أوربية بين روسيا وانجلترا تجد الدولة الألمانية نفسها مرغمة على الدخول في غمارها .

ولكن الحكومة الانجليزية ، حكومة المحافظين ، ما كانت تقبل بسهولة مثل هذا المقترح ، فرئيسها لورد بيكونزفيلد Beaconsfield ، بالرغم من أنه هو الذى عقد صفقة قناة السويس فاشترى أسهم الخديو فيها ، وبالرغم من تعلقه الكبير بالشرق ، وبالرغم من أنه زار مصر فبهره جمالها وأبهتها وسحرته حضارتها القديمة وفخامة آثارها التى تدل علي مجدها القديم وفتنه جمال نيلها ونخيلها وأذهله كثرة خيراتها (١) — إلا أنه كان فى ذلك الوقت لا يرى فى احتلال الانجليز لمصر وسيلة ناجعة لدرء الخطر الروسى عن الشرق الأدنى فهو يقول . إذا أخذ الروس الآستانة فانه يمكنهم فى أى وقت أن يجوسوا بجيوشهم خلال سوريا ويصلوا الى مصب النيل ، وعندذلك ماذا تكون فائدة أخذ الانجليز لمصر ؟ وحتى قواتنا البحرية لا تستطيع أن تعزز مركزنا فى مثل ذلك الموقف ، وان الناس الذين يتكلمون بهذه الطريقة يجهلون الجغرافيا تماما ، والآستانه لامصر ولا قناة السويس هى مفتاح الطريق الي الهند(٢). ولقد أبدى بيكونزفيلد عجبه والشك الذي خالج نفسه من كثرة عروض بزمرك ، وذكر أنه يفضل أن يستولي علي آسيا الصغرى ذاتها (٣).

علي أن الحكومة الانجليزية اذا كانت راغبة عن احتلال مصر في ذلك الوقت

---

(١) انظر Monypenny and Buckle: Life of Disraeli الجزء الاول . الفصل الخاص برحلة ديزريلي الى الشرق ومصر . ولقد تنقل ديزريلي فى أيام شبابه في مصر من رشيد الى الشلال.

(٢) انظر المرجع السابق جزء ٢ ص ٨٤ عن كتاب Seton-Watson: Disraeli and Gladstone ص ٩٨

(٣) Seton-Watson: Disraeli and Gladstone ص ١٠٩ .

الا أنها كانت حريصة على ألا تمتد اليها يد الحرب التي ثارت ثائرتها فى البلقان ، فلقد انتشرت الاشاعات فى ذلك الوقت التي تقول بأن روسيا تنوى ادخال مصر فى غمرة الحرب ، فهي تنوى محاصرة الشواطىء المصرية باسطول البحر الابيض المتوسط ، أو هى تنوي أخذ أرمينية وأرمينية مفتاح سوريا وسوريا مفتاح مصر !!، ولذا قدم داربي Derby وزير الخارجية الانجليزية الي شوفالوف Shuvalov سفير روسيا فى لندن بأن مصالح انجلترا سوف تضطرها الى اتخاذ خطة الدفاع اذا مس خطر حرية الملاحة في قناة السويس أو اذا قامت روسيا بهجوم علي مصر(١). واستفسرت الحكومة الانجليزية فوق ذلك من روسيا عما اذا كانت عازمة على محاصرة سواحل مصر أم لا ، وبينت فى نفس الوقت أن أي عمل حربي يهدد سلامة مصر أو قناة السويس ستعتبره انجلترا عملا عدوانيا اعتدائيا موجهانحوها(٢)، ولم يهدأ بال انجلترا ولم تطمئن الا حين علمت أن هذه الأشاعات هى محض اختلاق(٣) . وفي أثناء الحرب الروسية التركية أعلنت روسيا عن رغبتها فى إرضاء انجلترا بأنها لن تتعرض لمصر ولا لقناة السويس ، فليست لها المصلحة ولا الرغبة ولا الوسائل للقيام بمثل هذا العمل(٤).

وفى الواقع أن انجلترا كانت فى ذلك الوقت أي فى سنة ١٨٧٧ تخاف عواقب اتباع السياسة التي يقترحها بزمرك ، وتخشى بصفة عامة عداوة فرنسا ، لاسيما وأن الرأي العام الانجليزي كان يعتقد تماما فى هذه السنة أن المستشار الألماني غير

---

(١) Documents Diplomatiques Français جزء ٢ رقم ١٧١ دكاز Decazes وزير الخارجية الفرنسية الي لفلو Le Flô سفير فرنسا فى بطرسبرج ٢١ مايو سنة ١٨٧٧ .

(٢) Sumnet: Russia and The Balkans ص ٣١١ .

(٣) (Seton-Watson,Disraeli and Gladstone ص ١٧٢ ، Sumner: Russia and The Balkans صفحات ٣١٠ الي ٣١٢ ، ٦١٨ .

(٤) نفس المصدر السابق ص ١٩٣

مخلص في ذلك المرض فدوافعه غير بريئة ، فهو يريد أن يدفع بانجلترا إلى مصر لكي تؤيده في الاستيلاء علي هولنده ، وحتى للملكة فكتوريا نفسها، ملكة انجلترا، كانت مصدقة للأشاعات التي تملأ الجو السياسى فى أوربا عن رغبة ألمانيا فى الاستحواذ علي هولندا ، مما اضطر السفير الألمانى في لندن إلى أن يؤكد للحكومة الانجليزية بأن ما يشاع عن رغبة الألمان فى ضم هولندا محض افتراء لا صدق فيه ولا غناء(١).

علي أن المستشار الألماني لم ييأس ولم يكترث لمثل هذه الأراجيف ، فهو يدون فى مذكرة أنشأها فى كسنجن Kissingen في صيف سنة ١٨٧٧ لوزارة الخارجية الألمانية : « لقد رغبت فى حث الانجليز علي أخذ مصر إذا كانوا لا يزالون يطمعون فيها ، لأنى أعتقد أن من مصلحتنا ولخير مستقبلنا العمل علي تقابل الانجليز والروس فى منتصف الطريق ، فاذا استطاعت انجلترا وروسيا الوصول الى إتفاقية بها تسيطر روسيا على البحر الأسود وانجلترا على مصر كان ذلك خدمة جليلة للسلام فى أوربا» ، ولكن ما العمل اذا كان الانجليز لا يرون فى أخذ مصر حلا كافيا لمشكلة المضايق ، فملكة انجلترا ووزراؤها ليست عندهم ذرة ثقة فى روسيا(٢).

ثم ان لورد داربي وزير الخارجية في وزارة المحافظين فى ذلك الوقت لم يكن بطبيعته ميالا الى اتباع سياسة خارجية نشيطة ، فهو لم يتحمس حتي لصفقة قناة السويس ، وكانت تنقصه فعلا الادارة القوية والعزم مما جعل السفير الألمانى في لندن يعتقد « أن الساسة البريطانيين يعيشون من يوم الى يوم ولا يفكرون فى المستقبل » ويرى أن على انجلترا اذا أرادت المحافظة على مركزها فى أوربا : أما المحافظة علي

(١) الوثائق الألمانية مذكرة لبزمرك كتبها لوزارة الخارجية الألمانية بتاريخ ١٥ يونيو سنة ١٨٧٧ ، منستر الي بيلوف ٦ يونيو ١٨٧٧

(٢) الوثائق الألمانية روس Reuss السفير الألماني فى فينا الي بزمرك ١٠ يوليو ١٨٧٧

الممتلكات العثمانية بقوة السلاح كما فعلت فى حرب القرم أو تقسيم ممتلكاتها ، ونعى عليها موقفها فى ذلك الوقت ، فهو في نظره موقف الضعف والتردد ، اذ لاهى جندت جنودها للدفاع عن تركيا ، ولاهى أنشبت اظفارها فى مصر كجزء من الغنيمة(١).

فروسيا ما برحت مصرة على السيطرة على البحر الاسود فيجب اذن على الانجليز — كما ترى السياسة الخارجية الالمانية — المحافظة على مصالحهم فى البحر الابيض المتوسط ولن يصلوا الى هذه الغاية الا باحتلال مصر .

وربما كان هناك رأى فى لندن ، ويصح أن يكون بيكونزفيلد نفسه وهو : أن تشترى انجلترا مصر من الباب العالى ، وأن تعوض السلطان عن الجزية التي تقوم مصر بدفعها سنويا . ولقد أبلغ ديزريلى الملكة فكتوريا يوما بأن ليس لدى الباب العالى مانع من بيع سيادته على مصر وكريت وقبرص(٢). ويظهر ان جلادستون كان على علم بهذه الحركة وانتقدها انتقادا لاذعا ، كما انتقد شراء ديزريلى لاسهم الخديو في قناة السويس من قبل . ولقد انتشرت اشاعات عن هذه الحركة الى درجة أن اضطر رئيس الحكومة الانجليزية الى أن يطمئن فرنسا من هذه الناحية (٣) ، واهملت فكرة الشراء اهمالا تاما .

ويعلم الساسة الالمان جد العلم انه اذا احتلت انجلترا وادي النيل فسيكون لذلك بلا ريب أعمق الاثر وآلمه فى فرنسا ، ولذا فالحكومة الفرنسية لن تتنازل عن مطالبها وعمالها من نفوذ فى البحر الابيض المتوسط الا اذا ضمن لها الانجليز زيادة

---

(١) انظر المصدر السابق ، الي بزمرك ٢٨ يونيو ١٨٧٨ .

(٢) Seton-Watson: Disraeli and Gladstone صفحات ٢٢٥ ، ٣٠٩ .

(٣) كان أول من كشف عن هذه الحركة الاستاذ سيتون واطسون كشفها فى الوثائق الروسية ويذكر ذلك الاستاذ أن اتهامات جلادستون لديزريلى غير صحيحة لان زميله فى حزب الاحرار لورد جرانفل يعلم جيدا أن ديزريلى لم يحاول اجراء صفقة شراء مصر . انظر الكتاب السابق صفحات ٢٢٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٠

تفوذها فى بحر الشمال ، وذلك بأن توافق الحكومة البريطانية على ضم بلجيقا لفرنسا وتعويض المانيا بهولندا لحفظ التوازن الدولى فى اوربا، وهذا ما لم تكن حكومة لندن تستطيع أن تقبله بأى حال من الأحوال.

ولقد وجد من رجال الدبلوماسية الانجليزية من يعضد وجهة النظر الألمانية . فالسفير الانجليزي فى برلين لورد أودو رسل Lord Odo Russell كان يحبذ أخذ انجلترا لمصر ، ويري فى ذلك حلا طبيعيا وسليما مريحا للمسألة الشرقية ، ولا ريب في أن الرأي العام الانجليزي في سنة ١٨٧٨ كان قد تحول الى تعضيد هذا الرأى وأخذ يحن الى اليوم الذي يري فيه العلم الانجليزى يرفرف على قلعة القاهرة، ويود القيام بأية تضحية للوصول الى هذه الغاية ، وكان فريق من أفراد العائلة المالكة الانجليزية يري من بداية الأمر انتهاز هذه الفرصة ، فرصة اشتغال المسألة الشرقية لامتلاك مصر . فقد كتبت الأميرة ألCrown Princess الى الملكة فكتوريا فى ١١ يوليو سنة ١٨٧٧ رسالة تقول فيها « ان كل من يحب انجلترا يرى اغتنام هذه الفرصة ، فرصة وضع أقدامنا فى مصر(١) » . علي ان أودو رسل كان يشكو دائما من انه لا يوجد عضو واحد فى الوزارة الانجليزية يأخذ بفكرته او يري قريبا منها ، وذلك خشية عداوة فرنسا .

فلقد كان موقف وادنجتون Waddington وزير الخارجية الفرنسية في ربيع سنة ١٨٧٨ صلبا لا يتغير فى هذه المسألة ، فالحجر الأول في أساس سياسته هو منع الانجليز من احتلال مصر بأى ثمن . ولذا فقد أعلن إعلانا لا يشوبه غموض وذلك عند دخوله الوزارة بأنه لن يقبل أبداً احتلال انجلترا لوادي النيل . وكما يقول السفير الألماني فى باريس برنس هوهنلوه Hohenlohe ان جانبا كبيرا من الرأى العام الفرنسى كان يعضد وادنجتون فى هذه المسألة بالذات ، ولو ان حملة الأسهم

(١) نفس المصدر السابق

الفرنسيين ربما كانوا يفضلون احتلال الانجليز لمصر لأنهم يجدون في ذلك الاحتلال خير ضمان لحقوقهم(١). ولقد اتبع الوزير الفرنسي بدقة السياسة التي أعلنها ولم ينحرف عنها ، فلم يقبل اشتراك الحكومة الفرنسية فى مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ إلا إذا اقتصر عمل المؤتمر ومناقشاته على معالجة الموقف السياسى الذى نشأ عن معاهدة سان ستفانو بين الباب العالى وروسيا ، وأصر على ضرورة موافقة الدول العظمى على ألا تعرض مسألة مصر وتونس وسوريا على بساط البحث في المؤتمر بأي حال، وفعلا وجدت الفكرة موافقة تامة من كل الدول (٢).

ولكن منستر السفير الألمانى فى لندن ظل يردد الفكرة الالمانية على اسماع لورد بيكونزفيلد ووزرائه ، وخاصة على وزير الخارجية الجديد لورد سولسبري Lord Salisbury ، لأن منستر كان يعلم جد العلم أن الوزير الجديد من أكبر دعاة الامبراطورية فلقد كان وزيرا لشئون الهند له همة ونشاط ليس لسابقة لورد داربى (الذى استقال من الوزارة عقب نزاع شديد ثار بينه وبين رئيس الوزارة) ، له رأيه الخاص في مسألة بقاء الدولة العثمانية ، فهو عديم الثقة بها ميال الى تقسيمها والعمل على انحلالها ، ويرى أن بقائها مهزلة من مهازل السياسة لا ينبغي استمرارها ، ويعتقد أن السياسة البريطانية القديمة فى المحافظة على بقاء الدولة العثمانية وكيانها سياسة عديمة المنفعة لا غناء فيها ولا تتفق والوقت وهو يحرص على الاتفاق مع روسيا أكثر مما يميل الى الحرب معها . ولقد كان سولسبرى منذ كان وزيرا للشئون الهندية دائم التفكير فى المحافظة على مصالح انجلترا لا بحماية تركيا من الخطر الروسى ، وانما بالاستيلاء على بعض ممتلكات الدولة العثمانية

(١) الوثائق الألمانية هوهنلوه الي بزمرك ١٥ مارس سنة ١٧٧٨

(٢) الوثائق الالمانية بيلوف الي منستر ١٧ مارس سنة ١٨٧٨ ، وبيلوف الى هو هنلوه ١٧ مارس سنة ١٨٧٨ ، Ière Série: Documents Diplomatiques Français. الجزء الثاني

التى تضمن لانجلترا سلامة امبراطوريتها وسلامة مواصلاتها الي الهند ، فهو كما يقول اللورد ليتون Lord Lytton «ان سياستنا الخارجية تنقصها الجرأة والخطة المرسومة» وأن المحافظة على الطريق الى الهند لا تكون الا بأخذ مصر و كريت والاشتراك فى القضاء المبرم على تركيا (١).

ولذا فموضوع مصر من المسائل التي يشوق سولسبرى التفكير فيها والمناقشة مع السفير الالماني ، ولكنه حين كان يخلو الى بقية أعضاء الوزارة كان دائما يجدهم غير ميالين إلى أخذ مصر ، فكما يقول لمنستر إن هناك مسألتين تمنع زملاءه من التفكير جديا في مسألة أخذ مصر أولاهما التعقيدات والتضحيات المالية وثانيهما عداوة فرنسا ، ولكن السفير الالماني كان قد تكهن بما يدور في خلد الوزارة الانجليزية ، ولذا فهو يجيب بأن هذه المصاعب مبالغ في تقديرها دون ريب، فموارد مصر المالية متى أديرت إدارة حسنة تحت رعاية انجلترا وتحت اشراف موظفين انجليز فانها تستطيع القيام بكل التعهدات المالية التي ارتبطت مصر بها، وأن الدائنين الفرنسيين يهمهم قبل كل شيء أن تسدد ديونهم وتدفع فوائدها ، ولا يأبهون كثيرا لذكريات فرنسا التاريخية أو لما تدعيه من أعمال مجيدة فى مصر ، ثم ما الذى يجعل الانجليز يظنون أن هدف فرنسا هو مصر ؟ فهدف فرنسا الحقيقى هو تونس لكي تستطيع حماية مصالحها في الجزائر . ثم بعد ذلك ما الذى تستطيعه عداوة فرنسا؟ فهل تستطيع فرنسا في الوقت الحاضر اعلان الحرب على انجلترا من أجل مصر ؟

ولما وجد سولسبري عدم اتفاق زملائه فى الوزارة على مسألة احتلال مصر اضطر غير راض الى ترك هذا المشروع ، ثم من ناحية ثانية سولسبرى نفسه كان دائما كبير الاهتمام بصداقة فرنسا ، وخاصة فى الوقت الذى تخلت فيه ايطاليا عن

(١) Seton Watson: Disraeli and Gladstone ص ٢١٩

مساعدة انجلترا فى المسألة الشرقية ضد روسيا(١) فسولسبرى يؤمن بضرورة تعاون الدولتين الغربيتين فى كل ما يختص بمسائل البحر الابيض المتوسط . بل لقد أصبح ذلك التعاون أمرا حيويا بالنسبة لانجلترا طالما كانت تبغى ألاتنضم فرنسا الى المعسكر الروسى . ومن الاسباب الاساسية التى جعلت الحكومة الانجليزية لاتأخذ بالعرض الالماني هو تشككها في سياسة بزمرك ، فكانت تخشى دائما أن يكون المستشار الالماني قد عرض مصر على فرنسا لتعويضها عن الالزاس واللورين في نفس الوقت الذى عرضها فيه على انجلترا .

وظل موقف المانيا بالنسبة لانجلترا فى هذه المسألة كما هو ، ظل موقف الصداقة والتأييد ، ولذا حين تعقدت الظروف بعض الشيء بين فرنسا وانجلترا أعلن بزمرك للسفير الانجليزى لورد أودورسل بأنه مستعد لتأييد بريطانيا العظمى «لان من مصلحة المانيا أن يتفوق نفوذ انجلترا علي نفوذ فرنسا في مصر» ، وهو مع ذلك ماض فى تأييده للتعاون بين الدولتين (٢) . وحين أرادت الحكومة النمسوية المجرية استغلال صداقة المانيا فطالبت بأن تشترك مع الحكومتين الفرنسيه والانجليزية فى الاشراف علي شئون مصر أشار اليها بزمرك بأدب بأن مصالح انجلترا وفرنسا اضعاف مصالح المانيا والنمسا ، وأن هذه المصالح تبرر فى نظره مركزها المفضل فى مصر ونفوذها الممتاز ، وأنه يفضل أن يوكل إلى انجلترا وفرنسا أمر حماية مصالح رعاياه في مصر علي شرط أن تقوم هاتان الدولتان بحماية مصالح الدول الأخرى علي قدم المساواة مع مصالحهما وبنفس الاهتمام(٣).

(١) لما استفحل الخطر الروسى فى أوائل سنة ١٨٧٨ فكرت انجلترا فى انشاء عصبة من دول البحر الأبيض المتوسط تكون غايتها منع امتداد النفوذ الروسى الي ذلك البحر، وعرضت الفكرة علي ايطاليا فرحبت الحكومة الايطالية فى أول الأمر بالمشروع ثم نكصت علي عقبيها

(٢) Winfred Taffs: Ambassador to Bismarck: Lord Odo Russell ص٣٠٦

(٣) الوثائق الالمانية دكتور بوش Busch فى وزارة الخارجية الالمانية الي ولي عهد المانيا ٧ سبتمبر سنة ١٨٨٢

ولقد أيد المستشار الألماني انجلترا وفرنسا تأييدا لا يعتريه ضعف فى موقفها ضد الخديو اسماعيل فى أوائل سنة ١٨٧٩ حين تحدي أوربا وأراد التخلص من العنصر الاجنبي ، فأرسل إنذارا الى مصر زلزل مركز الخديو، ووافق على فكرة الدولتين الظالمة فى طلب عزل الخديو ، بالرغم من أن كلا من روسيا وإيطاليا كان يعترض على حق الدولتين فرنسا وانجلترا فى طلب تخلي الخديو عن عرشه ، فهذا تدخل صريح فى شئون مصر لا يتفق والعرف الدولى ، ولكن تأييد بزمرك وعدم اكتراثه بما لاسماعيل من حقوق جعل معارضة روسيا وإيطاليا لا قيمة لها ، فغادر اسماعيل مصر حزينا وتولى شئونها توفيق .

وتعقدت المسألة المصرية من الناحية الدولية فى أوائل عهد الخديو توفيق ، وأنذرت الثورة العرابية بخطر كبير ، فثبتت ألمانيا على موقفها فى أن ليس لها مصالح مهمة في وادى النيل تدعوها للتدخل مباشرة ، وظلت متمسكة برأيها فى الاعتراف بمركز انجلترا وفرنسا الممتاز في مصر (١) ، فكما يقول لورد أودورسل عن بزمرك « إنه (أي بزمرك) راغب فى منح تأييده لأى سياسة تتفق عليها انجلترا وفرنسا في مصر، لأنه يري في الاتفاق الفرنسى الانجليزى أساسا للسلام والنظام فى أوربا، ويري فوق ذلك أن تنضم المانيا إلى جانب ذلك الاتفاق بتأييده وتعضيده» (٢).

وحين لجأت وزارة الأحرار وعلى رأسها جلادستون إلى المانيا لتعرف موقفها إزاء الثورة العرابية كان رد بزمرك بأن انجلترا أعلم بما يجب أن يكون عليه موقفها إزاء ذلك التعقيد الجديد فى المسألة المصرية ، ولكنه بين فى نفس الوقت أن سياسته كسياسة انجلترا ، فمن مصلحة الدول جميعا كما يعرف هو المحافظة على الموقف السياسى الراهن فى مصر وتعضيد سلطة الخديو .

(١) نفس المصدر بزمرك الي رادوفيتس Radowitz ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٧٩

(٢) رسل الي جرانفل ٢٩ ابريل ١٨٨٢

Taffs: An Ambassador to Bismarck عن Foreign Office. 64. 939. No. 120.

فبين جرانفل وزير الخارجية الانجليزية أن الحالة في مصر خطرة ، فوفقا لتقارير قنصل انجلترا الجنرال في القاهرة الخديو جد متشائم من سير الأمور الداخلية وأنه يائس جدا من استقامة الأحوال ، ولذا فالحكومة الانجليزية مصممة على تقوية مركزه وشد أزره بأن تعلن الدول الكبرى في صراحة وجلاء تام عن رغبتها في المحافظة على الحـــالة السياسية الموجودة ، ولذا فقد أصدرت الحكومتان الفرنسية والانجليزية إلى قنصليهما الجنرالين في مصر بأن يبينا للخديو عن هذه الرغبة بمذكرة بناير المشهورة . وذكر جرانفل أن فرنسا قد تعاونت مخلصة مع انجلترا في هذه المسألة، ولما وضح هربرت بزمرك أن المانيا لن تعترض على ما حدث ، ولكنها ترغب في أن يوكل الى الأتراك أصحاب السيادة في مصر أمر المحافظة على النظام(١) أجاب جرانفل إجابة قلقة مضطربة تدل على أحد شيئين : إما أنه يريد اخفاء خطة استنها انجلترا ، واما ان الوزارة الانجليزية لا تزال غير متفقة فيما بينها على السياسة التي يجب اتخاذها حيـال مسألة مصر . ولذا فهو يردد بأنه ما فتيء يعتقد أن إعادة النظام الى مصر على يد الأتراك هوخير الحلول الممكنة وأنه شر لا بد منه ، على أن جرانفل لم ينس أن يذكر لابن بزمرك ومبعوثه في لندن بأن ما صرح به هـو رأيه الشـخصي ، وأنه لا يزال لا يدرى إذا كان اخوانه فى الوزارة يشاطرونه هـذا الرأى ، ثم أضاف بأن قيام انجلترا بعمل وحدها في وادي النيل هو ضرب من المحال ، وان من المغامرة تعاون فرنسا وانجلترا في القيام بعمل وحدها ، وأن ترك

(١) وكان الاتراك عقب مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ قد لجأوا الى المانيا ابتغاء النصح والحماية وقابلت برلين ذلك الود بمثله وأجابت بعض طلبات الأتراك الخاصة بأرسال بعض الموظفين الألمان الى الاستانة تمادعا الى تخوف السفير الانجليزى فكتب الى جرانفل يقول : It is evident that the exchange of compliments, of presents, of diamonds and of assurances, of mutual respect and admiration has practically led to a state of real intimacy between Germany and Turkey which has never before existed and which gives the Sultan a welcome excuse for leaving his ways unended.» March 22, 1882. F.O. 64. 1005. No. 102 عن Taff: An Ambassador to Bismarck

الأتراك يتدخلون وحدهم لحفظ النظام والأمن في مصر قد يؤدى الى صعوبة التخلص منهم فيما بعد ، ولكن ميزة تدخل الاتراك وحدهم هو عدم وقوع التشاحن بين الدول الأوربية الكبري من جراء مسألة مصر (١).

ولقد لاحظ المبعوث الألماني هربرت بزمرك تضارب أقوال جرانفل مما لا يبشر فى نظره باستقرار الحكومه الانجليزية على رأي فى مسألة مصر ، فهي حانقة غاضبة علي الباب العالي لعدم قيامه بتنفيذ شروط معاهدة برلين كما يجب ، وهى فى حيرة من أمرها فيما يختص بمصر . علي أن ما كان يخشاه جرانفل قبل كل شيء هو أن تصبح مسألة مصر مسألة دولية ، هو تدخل الدول الكبرى فى مسألة مصر ، ولذا فهو يبين لألمانيا أن مثل ذلك التدخل ليس من صالح السلام فى أوروبا .

ولما كانت الحكومة الانجليزية ترى من المهم أن تتعاون فرنسا معها فى مسألة مصر ، هذا قوى من فكرة المستشار الألماني بأن سياسة انجلترا الخارجية لا يزال ينقصها الحكمة وبعد النظر « بدرجة لا يوجد لها مثيل فى تاريخ انجلترا » فانجلترا كما يرى أصبحت مقيدة بسياسة فرنسا الخارجية فهى لا تفكر إلا في التعاون مع فرنسا وإلا فى صداقة فرنسا ، وهاله أن يرى «وزارة جلادستون تندفع من مغامرة لأخرى »، فاذا كانت الحكومة البريطانية قد اتفقت مع الحكومة الفرنسية علي أن تكونا فى عزلة عن بقية دول أوربا بتدخلهما وحدهما في مسألة مصر ، فان علاقات بريطانيا العظمى مع الدول الأوربية الأخرى التى لها مصالح فى الشرق لابد وأن تتأثر تأثرا سيئا » وخاصة إذا حدث «وساءت علاقة انجلترا بفرنسا لتباين مصالحهما»، ولذا ففي آخر الأمر « فان انجلترا ستجد نفسها وحيدة منفردة فى أوروبا نتيجة لسياستها الحائرة المترددة»(٢)

---

(١) الوثائق الالمانية هربرت بزمرك الي بزمرك ٧ يناير سنة ١٨٨٢

(٢) نفس المصدر هاتسفلت Hatzfeldt فى برلين الي رويس Reuss السفير الالماني فى فينا ١٥ يناير سنة ١٨٨٢

وما كان بزمرك يثق فى حسن فهم جلادستون لشئون السياسة الخارجية ، وما كان يستطيع أن يقيم وزنا كبيرا لتصريحات جرانفل أو لآرائه الشخصية نظرا لضعفه وتردده وقلة حيلته، كما كان الشك يساوره دائما فى سياسة جمبتا الفرنسية ولذا فهو في سياسته العامة الأوربية معتمد علي الدول الامبراطورية النمسوية المجرية والروسية . أما فى مسألة مصر فهو لم يحد عن سياسته التقليدية التى تنطوي علي عدم إثارة العراقيل في وجه السياسة الانجليزية وإن كان لا يروقه أن يرى الحكومة الانجليزية تتبع ظل الحكومة الفرنسية .

ولكنه كان حريصا وخاصة بعد سقوط وزارة جمبتا الفرنسية فى أول شهر فبراير سنة ١٨٨٢ على أن يؤيد الخطوات التى تقوم بها الدولتان الغربيتان علي شرط أن تحوز هذه الخطوات موافقته ، وإن كان يفضل المحافظة علي الحالة السياسية الراهنة فى مصر ، وكان يعضده فى وجهة النظر هذه الدول الشمالية الروسيا والنمسا ، فهو لذلك ينصح بتدخل السلطان وحده ، ولكنه بين مع ذلك أنه لن يعارض اذا تدخلت الدول الأوربية الكبرى جميعها متعاونة ، وأسر الي الانجليز فى نفس الوقت بأنه سيحاول ارضاءهم بقدر المستطاع علي الرغم من ارتباطه بالدول الشمالية ، ولذا يبعث لورد أودو رسل السفير الانجليزى فى برلين بوثيقة سرية الى حكومته مؤرخة ٢٠ مايو سنة ١٨٨٢ يقول فيها:

Dr. Busch has told me (privately and confidentially) that although Prince Bismarck had not felt at liberty to separate himself officially and depart from the attitude assumed by Count Kalnoky and m de Giers in regard to sending instructions to their representatives at Constantinople, His Highness has nevertheless instructed him to speak privately to the Turkish Ambassador Sadoullah Pasha in the sense desired by your Lordship and that he had abready done so, and recommended him to advise his Government not to exaggerate the effect of the naval demonstration but

to abstain from interference and confide implicitly in the policy and good intentions of England and France». (1).

ولقد أطلع بزمرك حلفاءه على وجهة النظر هذه ، وأيد إبحار أسطول الدولتين للمحافظة على الأمن والنظام وتعضيد سلطة الخديو على حسب الفرامانات التي اعترفت بها دول أوروبا (٢).

ولم يكن بزمرك مرتاحا الى رغبة الحكومة الانجليزية فى أن تطلب من الباب العالي إرسال جنوده الى مصر لاعادة الهدوء اليها ، فلم يكن يعضد فكرة اصدار الدول أوامرها للحكومة العثمانية ، فهو يرى فى ذلك انتقاصا كبيرا من حقوقها ، وتحديدا لسلطتها لامبرر له ، ولقد أبدى السفير الانجليزي فى برلين أسفه لذلك الموقف من جانب الحكومة الألمانية ، ذلك الموقف الذي ربما سبب كثيرا من المتاعب لما لألمانيا من كلمة مسموعة لدي كثير من الدول الأخرى . ولقد أجاب هاتسفلت على ذلك ، وكان قائما بأمور وزارة الخارجية الألمانية بأن فرنسا لا تؤيد انجلترا فى مطلبها الخاص بأرسال الباب العالى لجنوده الي مصر ، وأسر الى السفير الانجليزي بأن بزمرك لن يقبل الاشتراك مع انجلترا فى الانتقاص من حقوق السلطان أو من سيادته ، ويرى أن الحل الوحيد للصعوبة الحالية هو ترك السلطان يفصل فيها بطريقته الخاصة ، فالاتراك لهم وسائل ناجعة فى تسوية مثل هذه المشاكل:

«The Turks had a way of their own of pacifying their co-religionists; they gave their agents a sword in one hand, and a bag full of decorations in the other, money in every pocket and told

(١) Taffs: Ambassador to Bismark صفحات ٣١٠ ، ٣١ . دكتور بوش من كبار موظفي وزارة الخارجية الالمانية . كونت كالنكى وزير خارجية الامبراطورية النمسوية المجرية ، مسيو دي جرز وزير الخارجية الروسية — الظاهرة البحرية هي المظاهرة التى قامت بها انجلترا وفرنسا في ميناء الاسكندرية عن F.O. 64. 1006. No. 169.

(٢) نفس الكتاب . رسل الي جرانفل ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ . ص F.O. 64 1006. No. 188.

them to make the best of their chances».(1)

ولما سأل رسل السفير الانجليزي عن الوسائل التى يمكن التخلص من الاتراك بعد ذلك أجاب هاتسفلت بأن هذه المسألة متروكة للمستقبل ، وأن قناصل روسيا والمانيا والنمسا وايطاليا قد سجلوا فى تقاريرهم أن هذه الطريقة هى خير الطرق التي يجب الأخذ بها لحل المشكلة المصرية ، لأن التدخل الحربى حتي ولو كان عثمانيا سيؤدى فى آخر الأمر الى كوارث ، وأضاف الى ذلك قائلا: ان كل ما يهم المانيا هو السلام وعدم وقوع حرب من أجل مصر «وان البرنس بزمرك يكون سعيدا لو استطاع نقض يديه من كل المسائل الشرقية ، ولكنه كعضو فى التآلف الأوربي مضطر لتأييد الدول التى يهمها ذلك الموضوع في الوقت الذي تجد نفسها متفقة فيه ، فسياسته هي عدم توسيع شقة الخلاف بين الدولتين انجلترا وفرنسا، وإنما هي العمل دائما علي تعاونهما والتوفيق بينهما لأنه يري السلام والمصلحة في ذلك» .

«Prince Bismarck had always agreed that a difference of opinion with regard to Egypt was inevitable and his earnest desire was not to foster such differences when they sprang up, but on the contrary to contribute as far as was is his power towards the continuance of the Anglo-French alliance which he has always welcomed as a guarantee of peace in Europe». (2)

وعلي أي حال قبل بزمرك الاشتراك فى مؤتمر الآستانة الذي انعقد من الدول الكبرى لمناقشة المسألة المصرية ومعالجتها ، ولو أنه كان لا يؤمن كثيرا باستطاعة المؤتمرات حل المشاكل الدولية ما لم تتفق الدول صاحبة الشأن علي حل هذه المشاكل من قبل . ولذا لم يكن كبير الأمل فى نجاح ذلك المؤتمر . وجدت الحكومة الالمانية أن فرنسا لم تكن بكبيرة الرغبة في نجاح ذلك المؤتمر لأن فكرته الأساسية لم تلق

(١) نفس الكتاب صفحات ٣١٢ ، ٣١٣ . رسل الي جرانفل ١٧ يونيو ١٨٨٢
F.O. 94. 1006. No. 212.

(٢) نفس الكتاب السابق صفحات ٣١٢ ، ٣١٣ . رسل الى جرانفل ١٧ يونيو ١٨٨٢
F.O. 64. 1006. No. 212.

ترحيبا فى باريس ، فالحكومة الفرنسية كانت عاقدة العزم علي مناهضة كل مبدأ يقول بتدخل الأتراك الحربى فى مصر خشية ازدياد قوة الاسلام فى شمالى افريقية الأمر الذي يعمل دون شك علي اضعاف مركزها فى الجزائر وفى البحر الأبيض المتوسط . وأيقنت ألمانيا أن المؤتمر سيفشل فى خطواته نهائيا لأنها (أي ألمانيا) لم تكن مستعدة لانتداب الدولتين الغربيتين انجلترا وفرنسا لحل مسألة مصر وانتقاص ما للسلطان من حقوق في هذه البلاد ، وان لم تكن تعارض في قيام الدولتين إذا أرادتا — بأرجاع النظام الي مصر على مسئوليتهما الخاصة ، فألمانيا لم ترد أخذ دور إيجابى في المسألة المصرية ، وكانت ترى أن إرسال الدولتين لأسطوليهما الى مياه الاسكندرية كان سببا فى حدوث المذبحة المشهورة وفى اثارة العسكريين المصريين إلى اقامة التحصينات والى الاستعداد للحرب ، ولكن ألمانيا بالرغم من ذلك لم تقم باثارة عراقيل في وجه الانجليز ، ولم تقتصر على ذلك بل لقد عملت علي الوقوف أمام محاولة روسيا تكوين حلف من بعض دول أوربا للاحتجاج على سلوك انجلترا في مصر ، وذلك بعد ضرب الانجليز لمدينة الاسكندرية وهنأت المانيا الحكومة الانجليزية علي نجاح العمليات الحربية ، ولما احتلت انجلترا قناة السويس فأثارت جانبا من الرأي العالمى ضدها كان موقف المانيا الصريح في تأييد انجلترا عاملا على تهدئة الخواطر فى أوربا نحو بريطانيا وخفوت صوت المحتجين . ولما كانت مصالح المانيا فى قناة السويس تجارية قبل كل شيء وليست سياسية لم تعارض السياسة الانجليزية وان كانت لم توافق علي طلب الحكومة الانجليزية بالاشتراك معها في ضمان حرية الملاحة فى القناة. ولم تناصر المانيا الجهود التى قامت بها بعض الدول الكبري لتطلب من انجلترا تفسير أعمالها وتوضيح موقفها ، بل اقتصرت علي إرسال هربرت بزمرك الي لندن ليقف علي سياسة انجلترا الجديدة إزاء المسألة المصرية ، ودعا القيصر الألماني والقيصرة الألمانية السفير الانجليزي لورد أودو رسل الى وليمة فاخرة لتهنئته

على النجاح العظيم الذى صادفته حكومته . ولم يخف السفير الانجليزى من ناحيته سروره ، فبعث بدوره يهنيء حكومته بسياستها «القوية» الوطنية القومية التى نالت تقدير الانيا .

ولما جاء أمر تنظيم انجلترا لشئون مصر أعلن بزمرك للورد جرنفيل ان الحكومة الألمانية لن تثير صعوبات او متاعب أمام انجلترا فى هذه الناحية. ولما ثارت المناقشة بعد ذلك في أمر مصير مصر ساء بزمرك أن يجد الوزراء الانجليز غير متفقين فيما بينهم علي السياسة التي يجب أن تتبع ، مضطربي الأعصاب قلقين كلما ذكرت دولة أجنبية اسم مصر. ولكن المستشار الألمانى ظل علي ولائه لسياسته القديمة التقليدية، ولم يخف أمام الحكومة الانجليزية المترددة أنه علي استعداد لئن يذهب فى تأييدها الى حد ضم مصر الي الممتلكات البريطانية إذا أرادت ذلك ، وان كان ينصح بأن من الخير لهم أي الانجليز لو وطدوا أقدامهم فى مصر تحت سيادة تركيا ، وبذا لا يضعف مركز السلطان فى العالم الاسلامي ولا ينال تركيا الهزال والانحلال ، وبذا لا تجعل انجلترا من السلطان عدوا مبينا لها فتفتح الباب واسعا أمام دسائس الدول الأوربية المعادية لها ، أما اذا اتبعت انجلترا سياستها التقليدية القديمة ، سياسة التحالف مع الباب العالى فانها تعزز مركزها في مصر وتركيا ، وتحكم مصر من القاهرة والآستانة معا ، ويكون انتفاعها أكبر ، بل سيكون هذا عاملا علي تيسير الأمور لبريطانيا فى البحر الأبيض المتوسط . ولعل بزمرك كان يرمي من وراء ذلك عدم اعطاء روسيا فرصة للاتفاق مع فرنسا على محاربة تقوذ انجلترا فى مصر والشرق الأدنى ، كما انه لم يكن يرمي الي تمهيد الطريق أمام الباب العالي للانضمام الى جانب فرنسا .

اقترح المستشار الألمانى إذن ابقاء مصر تحت السيادة العثمانية ، ولكنه اقترح بجانب ذلك أن يجعل الانجليز من وظيفة قنصلهم الجنرال فى مصر وظيفة مشابهة

لوظيفة المقيم العام الفرنسى فى تونس ولعل بزمرك كان يبغي أن يعرف من وراء ذلك الاقتراح مدى رغبة الانجليز فى التسلط على الأمور فى مصر ومدي محاكاتهم للوسائل الفرنسية فى الحكم الامبراطوري ، ووافق وزير الخارجية الانجليزى جرانفل على الفكرة الاولى بابقاء مصر تحت السيادة العثمانية فالفكرة وجدت هوى فى نفسه لانها صادرة من المانيا ولن تستطيع انجلترا القضاء على السيادة العثمانية دون الاستهداف لخطر غضب المانيا وسخط الدول الأخرى ، وكانت تركيا فى ذلك الوقت قد نجحت فى التقرب من المانيا الى حد أن المستشار الالماني قد وافق على ارسال بعثة المانية حربية الى الآستانة لتنظيم الجيش العثماني ، فالقضاء على السيادة العثمانية سيثير لانجلترا فى مصر مشاكل لاعداد لها »

ولكن جرانفل اعترض علي الفكرة الألمانية الثانية بجعل وظيفة ممثل انجلترا في مصر مماثلة لوظيفة المقيم الفرنسى في تونس وقال « بأن انجلترا لن تذهب الى هذا الحد ولن تستطيع تطبيق وسائل فرنسا فى تونس علي مصر وقناة السويس » (١) ولم يبين جرانفل أى نظام ستتبع انجلترا في مصر ! ولكنه ذكر أن انجلترا ستجعل المرور فى قناة السويس حرا لجميع الدول في وقت السلم والحرب وأنها « لن تفرض نظام الحماية على مصر » . ولعل الوزير الانجليزى أراد أن يثبت للالمان حسن نية الحكومة الانجليزية فهي غير مستعدة للامعان فى استعمار مصر فهى لن تعمل على استغلال هذه البلاد لصالحها ولن تعمل علي الاستئثار بالسلطة فيها . ولكن جرانفل أحب أن يتحسس رأى بزمرك فى أمر مصير مصر فقال المستشار الالماني « إنه ترك أيدى الانجليز حرة في وادى النيل » يفعلون فيه ما شاءوا .

ولما أشار جرانفل الى موقف فرنسا العدائى ومناهضتها لسياسة انجلترا مما قد يكون له خطر علي مركز الانجليز ، كان بزمرك يهون من خطر ذلك الموقف ،

(١) الوثائق الالمانية مذكرة سياسية لهربرت بزمرك (فى لندن) اكتوبر سنة ١٨٨٢

ويذكر الحكومة الانجليزية بأنه طالما كانت المانيا قوية ومهيبة الجانب ، وطالما كانت صديقة لانجلترا فلن تستطيع الجمهورية الفرنسية التحرش جديا بانجلترا، ولن تستطيع الذهاب الي حد إعلان الحرب عليها ، فدستورها وحالتها الحربية لا يسمحان لهما بذلك وخاصة وأن المانيا واقفة بالمرصاد ورقيب جبار عتيد علي حركاتها .

ولقد أرادت الحكومة الانجليزية أن تتقرب من المانيا في مسألة تقرير حرية المرور فى القناة ، لأن هذا هو كل ما يهم المانيا في نظر انجلترا ، وطلبت كذلك اشتراك المانيا فى ضمان حرية الملاحة فى هذه القناة ، ولكن المستشار الألماني ما كان يريد التورط فى مسألة مصر أو القناة ، فبين لانجلترا أن المانيا كدولة تجارية ترحب بلاشك بحرية المرور فى القناة ، ولكنها غير مستعدة للذهاب الى حد قبول الاشتراك فى ذلك الضمان لأنه ربما اعترضت على هذا المبدأ إحدي الدول البحرية الكبرى، والمانيا غير مستعدة للدخول فى حرب من أجل مصر أو القناة. (١)

وقدرت انجلترا حق التقدير موقف التأييد العظيم الذي وقفته المانيا في المسألة المصرية أبان أشد أزماتها ، فشكر وزير الخارجية البريطانية الحكومة الالمانية ، وكرر زملاؤه ذلك الشكر أكثر من مرة فلقد أعلن هاركورت Harcourt أحد الوزراء الانجليز « بأنه الى المانيا وحدها يرجع الفضل فى جعل يد انجلترا حرة في مصر ، فلقد كان فى وسع بزمرك أن يقلب العربة بانجلترا ».(٢)

ولقد ظل موقف المانيا فى سنة ١٨٨٣ واحدا لا يتغير ، ولكن الظروف السياسية تغيرت تغيرا تاما واضحا فى سنة ١٨٨٤ . ففى هذه السنة تمت الجمعية الاستعمارية الالمانية وتأسست الصحيفة الاستعمارية Kolonial Zeitung, .

(١) نفس المصدر السابق شتوم Stum قائم بالاعمال فى لندن الى هربرت بزمرك ٣١ أكتوبر سنة ١٨٨٢ ، هربرت بزمرك الي شتوم ٢ نوفمبر سنة ١٨٨٢ .

(٢) نفس المصدر السابق هربرت بزمرك الي بزمرك ١٤ يناير سنة ١٨٨٣.

لم تكن للدولة الألمانية سياسه استعمارية في السنوات التي سبقت هذه السنة، فلقد كان بزمرك راغبا عن الاستعمار ، ويرى أن الوقت غير مناسب، وأن جهود المانيا السياسية يجب أن توجه الى توطيد دعائم وحدتها السياسية والى بناء مركز متفوق لها في أوروبا . كان يري أن نشاط المانيا يجب أن يتركز في اوربا ، وعلي حدودها الغربية بصفة خاصة طالما لم تنس الحكومات الفرنسية الرغبة في الانتقام واسترداد الولايتين المفقودتين الألزاس واللورين ، واطمأن الى مركز المانيا في اوربا بعد توطيد علاقاته مع امبراطورية النمسا والمجر نهائيا في سنة ١٨٧٩ ، ومع روسيا في ربيع سنة ١٨٨١، ومع إيطاليا في ربيع السنة التالية ،فلاخوف إذن علي تفوق الدولة الألمانية في أوربا.

فظهر حينئذ عامل جديد في السياسة الألمانية الخارجية ، وخاصة بعد أن نمت الصناعية الألمانية وأخذ الانتاج الكبير يلعب دوره ، وتبع تقدم الصناعة نمو التجارة بسرعة هائلة ، وظهر تجار من برلين وهمبرج على شواطىء افريقية والمحيط الهادى، وانتشرت البعثات الدينية الألمانية في أرجاء العالم ، وزاد الحماس واشتد التمسك بالقومية الالمانية بعد انتصاراتها الباهرة في سادوا وسيدان . وبعد تفوقها السياسي في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ ، فالاعتزاز بالقومية الألمانية كان من العوامل التي دفعت الالمان الى الاستعمار ، وتفوق المانيا من الناحية السياسية في سنة ١٨٨٢ هو الذي جعل بزمرك يعيد النظر فى موقفه ازاء الامبريالزم ، ووجد التجار الالمان من الشجاعة والمصلحة أن يستقروا فى المحطات التي أنشأوها فى جنوب افريقية والمحيط الهادي، وأصبح المستشار يجد ألا غني لألمانيا عن الاستعمار ، وازداد اهتمامه به حتى اعتبره مسألة حيوية بالنسبة لألمانيا ، ولذا كان علي قدم الاستعداد لأن يجعل من مسألة الاستعمار محكا لعلاقاته بالدول الأوربية الكبري لاسيما الاستعمارية منها ، ولذا فهو مستعد لتضحية علاقاته الودية بانجلترا اذا قاومت مشاريعه الاستعمارية، وهذا يفسر لنا موقفه إزاء انجلترا في مصر فى سنة ١٨٨٤ .

لقد خشى الانجليز أن تفكر المانيا تفكيرا جديا فى الاستعمار ، وهالها تقدم التجار الالمان والبعثات الدينية الألمانية ، وأصبحت ترى فى الألمان منافسا خطيرا قويا ، فأخذت وزارة جلادستون التى لا زالت تتولى الحكم فى انجلترا فى أوائل هذه السنة فى وضع العراقيل أمام المستعمرين الألمان فى غربى إفريقية وفى جزائر فيجي وساموا ، وهاجمت الصحافة الانجليزية بعنف السياسة الالمانية الاستعمارية ، فثارت لذلك ثائرة الامبرياليين من الألمان ، بل هاج الرأى العام الالماني ، وأخذت الصحافة الالمانية تهاجم فى مقالات قوية السياسة الانجليزية والصحافة الانجليزية ، وغضب بزمرك غضبا شديدا ، واتخذ من مسألة مصر ذريعة يتهدد بها انجلترا .

وبعث الى منستر سفيره فى لندن فى ٤ ابريل سنة ١٨٨٤ يطلب منه أن يذكر الانجليز بموقف المانيا نحوهم فى مسألة مصر فى سنة ١٨٨٢ ، وأن يبين لهم كيف لم تحتج المانيا على ضرب الاسطول الانجليزى لمدينة الاسكندرية ، وكيف لم تقف الحكومة الالمانية حجر عثرة فى سبيل احتلالهم لمصر ، وكيف لم تناقش مركز انجلترا الممتاز فى وادى النيل والشرق الأدنى الاسلامي ، وكيف لم تثر صعوبات أمام ما اتخذته الحكومة الانجليزية في مصر من خطط ، وكيف أن الحكومة الأنجليزية شكرت الحكومة الألمانية شكرا جما على موقف التأييد هذا المنقطع النظير .

ولذا فألمانيا لها الحق الآن فى أن تنتظر رد الجميل ، وفي أن تنتظر من الانجليز ألا يقفوا حائلا أمام حقوق الرعايا الألمان فى فيجى ، ولوح بزمرك بالوعيد والتهديد اذا عرفت انجلترا تحقيق المطامع الألمانية ، فان الحكومة الألمانية ستدرس موقفها من جديد ازاء وزارة جلادستون وخاصة ازاء السياسة الانجليزية في مصر . (١)

ولقد ذكر بزمرك الانجليز بمركزهم المتزعزع فى اوربا ، وبين لهم ألا خوف على انجلترا فى هذه القارة الا من فرنسا ، وفى آسيا الا من روسيا . ولن يكون

(١) الوثائق الالمانية بزمرك الى منستر ، ابريل سنة ١٨٨٤ .

عداء فرنسا ذا قيمة أو خطرا على انجلترا الا اذا ضمنت فرنسا حياد المانيا ، وإن الحكومة الالمانية مستعدة من ناحيتها للثبات على سياستها الودية حيال انجلترا في مصر ، كما أنه ليس من الصعب على المانيا أن تحسن علاقاتها باعداء انجلترا (١) ، وأن انجلترا يجب أن توقن بانها لن تستطيع الاعتماد على صداقة الحكومة الألمانية أو حيادها أو تأييدها في حالة اعتداء فرنسا أو روسيا الا اذا أرضت المطامع الألمانية كاملة .

ومضى بزمرك يعلن للانجليز بأنهم اذا ناقشوا حق المانيا في الاستعمار فان من حق المانيا أن تناقش انجلترا في حقها في مصر ، ونعت سياسة انجلترا بأنها سياسة أنانية «naive egoism» ، وقال اذا استمرت الحكومة الانجليزية سادرة في غلوائها كان ذلك «امتهانا لشعورنا القومي» ، وانتقد تصرفات وزارة جلادستون وعملها على اثارة المستعمرات الانجليزية في افريقية على السياسة الألمانية ، وبين أن انجلترا تتحمل الأعذار لكي تُري أن المعارضة لم تأت من جانبها ، ولكن من جانب برلمانات المستعمرات ، وقال ان استقلال المستعمرات في تدبير شئونها الخارجية مهزلة لا تصدق .

وكانت المسألة في نظره جد خطيرة ، فلقد كانت الانتخابات القادمة في المانيا تحتم عليه أن يبين رأي الحكومة صراحة في الاستعمار اذا كانت تريد تأييد نواب الشعب الألماني لها .

ولما ثارت مسألة مصر من جديد ، وخاصة حين لم تصل المفاوضات الانجليزية الفرنسيه بشأن الاصلاح المالي الى نجاح أيدت المانيا بحماس وجهة النظر الفرنسية ، وأكد هربرت بزمرك مبعوث المستشار الألماني في لندن لوزير الخارجية الفرنسية بأن لألمانيا مصالح مالية مهمة في مصر تصل الى مائة مليون مارك ، وحين أبدى جرانفل دهشته من

(١) الوثائق الالمانية بزمرك الى مفستر ٥ مايو سنة ١٨٨٤

هذه الملاحظة وقال ان الحكومة الالمانية قد قررت منذ زمن قريب بأن ليس لها مصالح مهمة فى مصر أجاب المبعوث الألماني بأن الأوقات قد تغيرت ، وأخذت الصحافة الالمانية تنتقد بشدة سياسة انجلترا فى مصر، وتدحض ما تدعيه انجلترا من حقوق في هذه البلاد وفي احتلالها ، وكان بزمرك نفسه يمد الصحافة الألمانية بالمقالات العنيفة ضد انجلترا .(١)

وكان موقف بزمرك فى مسألة مصر داعيا لأن تعيد الحكومة الانجليزية التفكير فى موقفها ازاء الاستعمار الالمانى ، وكما يظهر لم يكن كل اعضاء الوزارة الانجليزية يشاركون جرانفل رأيه فى عرقلة المشاريع الألمانية . ومن بين هؤلاء شخصية فذة سيكون لها أثر عظيم فى توجيه الاستعمار الانجليزي وجهته المعاصرة . وهى شخصية جوزف تشمبرلن Joseph Chamberlain . نبغ تشمبرلن في وزارة الاحرار وأصبح له فيها نفوذ كبير بالرغم من أن الوزارة التى كان يتولى شئونها ، وهى وزارة التجارة ، لم تكن وزارة كبيرة ، لم يكن تشمبرلن فى ذلك الوقت يكبر الحب لفرنسا ، وكان من القائلين بشراء الصداقة الالمانية ، وكان يعضده فى ذلك الرأى لورد هارتنجتن Hartington وسير تشارلز ديلك والبرنس أوف ويلز ولى عهد انجلترا .

على أنه فى هذه الاثناء مات لورد أمپتهل Ampthill (لورد أودو رسل) وكان سفيرا لانجلترا فى برلين مدة سنوات عديدة عمل فيها على توثيق الصلات بين المانيا وانجلترا ، فكان لموته أثر سيء على العلاقات الانجليزية الالمانية فلقد ، عرضت الحكومة الانجليزية تعيين سير روبرت موريير Sir Robert Morier خلفا له فرفض بزمرك لأنه لم ترقه شخصية هذا الرجل ولا آراؤه السياسية ، فأسرعت الى تعيين سير ادوارد مالت Sir Edward Malet قنصلها الجنرال السابق فى مصر

(١) نفس المصدر هربرت بزمرك الي بزمرك ١٦ يونيو ١٨٨٤

سفيرا لها فى برلين وهو رجل برز في الناحية الدبلوماسية . وفى هذه الاثناء أيضا كان بزمرك قد هدد انجلترا بانه اذا استمرت الحكومة الانجليزية فى موقفها العدائى بأزاء المشاريع الالمانية الاستعمارية فسيقطع نهائيا الصلات الطيبة معها ، وسيعمل على التقريب ما بين وجهات النظر الالمانية والفرنسية ، وعمل فعلا على اثارة صعوبات لا يستهان بها أمام انجلترا فى مصر وخاصة في صندوق الدين(١) بل وذكر حكومة جلادستون بلهجة حاسمة بضرورة احترام المعاهدات التى عقدتها مصر قبل الاحتلال مع الدول الأوربية وكانت انجلترا قد فكرت فعلا فى تغيير بعضها .(٢)

فلا عجب إذن إذا رأت وزارة جلادستون أن تطأطيء الرأس أمام المانيا ، وكان جرانفل وزير الخارجية الانجليزية فى نظر الالمان قد كبر سنه وفقد ذاكرته واضمحلت أعصابه ، وكان هو ووزير المستعمرات لورد داربي مصدر قلق كبير لألمانيا « فلورد داربي شخصية لا يمكن الاعتماد عليها كثير الشك يرى مصيدة في كل شيء » (٣)

تراجعت الحكومة البريطانية حين وجدت أن الأمور تحرجت عليها فى مصر نتيجة لموقف المانيا ، وظهر ذلك التراجع فى التصريحات التى أدلى بها سير تشارلز دلك لهربرت بزمرك المبعوث الألمانى فى لندن ، فلقد حمل دلك بعنف على سياسة جرانفل نحو المانيا ، ونعى عليه اضطرابه فى سياسته واعوجاجه وقصر نظره في المسائل الاستعمارية ، وأن من حق الحكومة الالمانية أن تحتج على سلوكه الغبى . وأن الخطأ بلا ريب هو خطأ انجلترا . فقرر هربرت بزمرك أن الصحف الانجليزية أيا كان نوعها الحزبي قد هاجمت المانيا ، وحاولت إفساد العلاقات الألمانية الفرنسية ،

(١) الوثائق الالمانية الى هربرت بزمرك ٩ يوليو سنة ١٨٨٤
(٢) نفس المصدر مذكرة وليم بزمرك السياسية بتاريخ ٢٣ أغسطس سنة ١٨٨٤
(٣) نفس المصدر هربرت بزمرك الى بزمرك ١ أكتوبر سنة ١٨٨٤

وأن انجلترا يجب أن تعترف أن المنازعات بين المانيا وفرنسا ليست قيدا فى أرجل المانيا تستغله الدول الأخرى ، وأن لورد جرانفل «قد قدر صداقة المانيا لانجلترا كصداقة الدنمارك أو اليونان» ، وأنه لعله الآن يعرف من التجارب مدى قوة المانيا وقوة صداقتها حين تعقدت أمور مصر .

حينئذ كرر ديلك اعتذاره وقال إن سياسته كانت ولا تزال دائما التعاون التام مع المانيا «فأنكم لن تذهبوا إلى حد إعلان الحرب علينا من أجل مصر، ولكن فرنسا قد تفعل ذلك... وما يجب علينا أن ننظر اليه دائما هو موقف فرنسا نحو الأعمال التى نجد أنفسنا مضطرين إلى انجازها في مصر...»(١) .

كان بزمرك لا يرى فى مسألة مصر أمراً حيوياً بالنسبة لألمانيا وأن المسألة الاستعمارية مسألة حيوية بالنسبة لها، لارضاء المستعمرين الألمان من ناحية ولاستصلاح الرأى العام الالمانى من ناحية أخرى، ولاتصال مسألة الاستعمار بموقف الحكومة الداخلى، وكان يعلم ان الموقف الذي وقفه فى مسألة مصر كان نتيجة طبيعية لوقوف انجلترا أمام أمانى المانيا الاستعمارية ، فكما يقول «إن أقل ركن فى غينيا الجديدة او أفريقيه الغربية حتى ولو لم تكن له قيمة فى ذاته هو أهم فى نظرنا وفى سياستنا من كل مصر ومستقبلها»(٢) فالرأى العام الالماني لا يهتم بأمور مصر ، والمستعمرون الألمان قد وجهوا عنايتهم الى مناطق بكر جديدة ولم تكن مصر واحدة منها ، فمصر فى نظرهم مثقلة بالديون قد وقفت مواردها على خدمة أصحاب الديون من الفرنسيين والانجليز.

ولقد اتهم المستشار الالماني انجلترا بالعمل على إيقاع التشاحن بينه وبين فرنسا وروسيا، فانجلترا كما يقول تعمل على إثارة الامور في أوربا ضد المانيا حتى تستطيع أن تنفذ بنجاح تام سياستها الاستعمارية فى مصر وفى أفريقيه والشرق . ولذا حين

(١) نفس المصدر مذكرة لهربرت بزمرك ٥ أكتوبر سنة ١٨٨٤
(٢) الوثائق الالمانية بزمرك الى منستر ٢٥ يناير سنة ١٨٨٥

خطب جرانفل فى البرلمان الانجليزى فى ٢٧ فبراير سنة ١٨٨٥ وأراد أن يورط المانيا أمام الرأى العام الانجليزي بأن قرر أن المانيا تعطف دائما على مركز انجلترا في مصر وتؤيدها في سياستها تأييدا تاما ، صحح بزمرك موقف المانيا ، وأكد أن تصريحات جرانفل غير دقيقة وغير صحيحة ولا تطابق ما حدث فعلا و «أن بزمرك يعمل على المحافظة على حقوق السلطان فى مصر » و «أن انجلترا تستطيع أن تبسط نفوذها فى مصر بمفاوضات ودية مع السلطان وبتعاون السلطان ، وأن المانيا ليست لها مصالح مباشرة فى مصر تجعلها تثير العقبات فى وجه انجلترا » (١)

لقد كان جو المحادثات بين انجلترا والمانيا عاصفا ، وكان جرانفل كثيرا ما تثور ثائرته ويغضب ، ولكن موقف المانيا بالنسبة لمصر أرغمه على التراجع والتسليم بمطالب الألمان جميعها ، وجاء جلادستون نفسه الى هربرت بزمرك يعلن له أنه يشجع المانيا فى سياستها الاستعمارية وانه مبتهج لآمالها الحضارية . ولعل السبب المهم الذي جعل الانجليز يتراجعون هو احتمال تعاون المانيا وفرنسا البحرى ، فبحرية المانيا وفرنسا مجتمعتين متفوقة فى ذلك الوقت على البحرية الانجليزية ، ولما كان التقارب قويا بين بزمرك وفرى Ferry رئيس الحكومة الفرنسية ، فبزمرك يؤيد مطالب الفرنسيين الاستعمارية وموقفهم فى المسألة المالية المصرية ، وفري يؤيد المانيا، استطاع التحالف الجديد تحقيق أغراض الطرفين فى مؤتمر برلين . على أن بزمرك لم يشأ أن يتحدى انجلترا أكثر من هذا ، فهو لا يثق تماما بفرنسا ، وانجلترا من ناحيتها في أشد الحاجة الى صداقة بزمرك ، فالحالة فى السودان كانت سيئة للغاية ومنذرة بشر مستطير ، ففى أول سنة ١٨٨٥ سقطت الخرطوم فى يد المهديين وقتل جوردون وضاع ما كان لانجلترا من مركز ومهابة فى الشرق بأكمله واقتحمت الجيوش الروسية حدود الأفغان وهددت الهند ، وتجمعت المتاعب والأزمات على

(١) الوثائق الانجليزية المنشورة فى الكتاب الازرق Blue Book لسنة ١٨٨٣ فبراير ١٨٨٣ ، صحيفة Nord Deutsche Allgemeine Zeiting ٢ مارس سنة ١٨٨٥

انجلترا فى أفريقيه وآسيا بشكل عديم النظير .

صفا الجو أخيرا بين المانيا وانجلترا بتراجع وزارة الأحرار ، وزاد الجو صفاء سقوط هذه الوزارة ، فلم تعد المانيا تحرك مسألة مصر من جديد إذ كانت سياسة المحافظين التقليدية هى المحافظة على صداقة المانيا . فعاد الى تأييد سياسة انجلترا فى وادي النيل ، ويظهر هذا حين وجدت الحكومة الانجليز نفسها مضطرة الى المانيا لتعرف رأيها فى أمر مصير مصر . ففي سنة ١٨٨٦ أثار لورد راندولف تشرشل Rundolph Churchill مسألة مصير مصر أمام السفير الألمانى فى لندن ، وأبدى قلقه من أن إحدى الدول الكبرى عازمة على إثارة موضوع جلاء الانجليز عن وادي النيل مرة أخرى ، وطلب معرفة رأي المانيا إزاء هذه الحالة الجديدة المملوءة بالنذر . فرد هاتسفلت السفير الألمانى فى لندن بأن المسألة لن تثور فى الوقت الحاضر نظرا للعلاقات الطيبة بين المانيا وانجلترا ، وعقب بزمرك فى برلين بأن المانيا لن تشترك مع أى دولة أخرى فى أى مطلب يتعلق بموقف الانجليز فى مصر ، أما إذا لم تتعاون انجلترا مع المانيا في المسائل الاستعمارية فالموقف لا بد متغير(١). وقد بالغ تشرشل في شكر الألمان ، وبين أن التأييد الألماني سيجعل الحكومة الانجليزية مطمئنة إلى وضع مشاريعها الخاصة باصلاح المالية المصرية فلن تخشى الآن شيئا من فرنسا(٢).

وكان شك بزمرك المريب في سياسة فرنسا الخارجية هو الذى حمله على أن يمضى فى سياسته القائمة على صداقة انجلترا وتأييد سياستها فى مصر ، فهو يصرح لحكومه سولسبرى « نحن لا نستطيع أن نعتمد على الفرنسيين كحلفاء لنا حتى فى وقت الدفاع ، فالعداء بيننا وبينهم قديم وسيظل باقيا ، وليس أمامنا سوى الانضمام

(١) الوثائق الالمانية هاتسفلت الي بزمرك ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٨٦
وبرقية بزمرك الى هاتسفلت ٢٤ سبتمبر ١٨٨٦

(٢) نفس المصدر هاتسفلت الى بزمرك ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٨٦

الى جانب انجلترا»(١) .

زال بزمرك من مسرح السياسة الأوربية فى سنة ١٨٩٠ ، ولم تختلف سياسة القيصر الالمانى فلهلم الثانى Wilhelm II أو المستشار الجديد كابريفى Caprivi عن سياسة بزمرك فيما يختص بمصر وإن اختلفت دوافعهما الى حد ما عن دوافعه ، وكان الباعث لهما على انتهاج خطة بزمرك هو التقارب الجديد بين فرنسا وروسيا الذى تم بعقد التحالف بين الدولتين ، فكان من الطبيعى إذن أن تتجه المانيا صوب انجلترا وأن تهتم بالمحافظة على صداقتها وتأييدها ، فأوربا قد انقسمت الى معسكرين المعسكر الألمانى والمعسكر الفرنسى الروسى ، فكان هدف المانيا الطبيعي هو ضم انجلترا الى المعسكر الألماني . ووجدت المانيا فى التحالف الثلاثي بينها وبين النمسا وإيطاليا خير وسيلة لأرضاء الحكومة الانجليزية سواء أكانت حكومة سولسبرى أو جلادستون . فكما يكتب وزير الخارجية الالمانية مارشال Marshall الى سفيره فى لندن هاتسفلت فى سنة ١٨٩٣ « إننا سنستمر فى تأييد انجلترا طالما كانت لها سياسة مستقرة فى مصر والشرق الأدنى .... ومن اللحظة التى نعتقد فيها أن انجلترا غير قائمة بذلك أو نالها الوهن أمام روسيا وفرنسا يجب أن نبحث عن وسائل أخرى لوقف أى اعتداء من جانب التحالف الفرنسى الروسى »(٢) فألمانيا إذن مستعدة للاخذ بناصر انجلترا طالما وقفت انجلترا حاجزا قويا أمام مطامع فرنسا وروسيا .

فلا غرابة إذن اذا ناصرت الحكومة الالمانية وزارة سولسبرى نصرا مؤزرا ، واذا أيدت وزارة روزبري من بعده تأييدا قويا ، فكلاهما الى حد كبير كان ميالا الى الانضمام الى التحالف الثلاثى معضدا لسياسته . وهذا يفسر لنا تأييد المانيا لانجلترا

(١) الوثائق الالمانية رقم ٧٠٢ وما بعدها عن
Langer: European Alliances and Alignments.

(٢) الوثائق الالمانية ٩ يوليو ١٨٩٣

فى مشاريعها المتعلقة بالدين والقضاء ومحاولاتها إصلاح الحالة في مصر ، كما يفسر لنا جهود المانيا فى تهدئة روع الباب العالى من ناحية مركز الانجليز فى مصر والتقريب ما بين وجهتى النظر العثمانية والانجليزية فيما يختص بمصر ، ومحاربة جهود فرنسا المستمرة فى إثارة الباب العالى للاحتجاج ضد انجلترا أو عرض مسألة مصر من جديد على الدول الكبرى .

ولما جاءت وزارة روزبرى الذى تعين فيها لورد كمبرلى Lord Kimberley وزيرا للخارجية ظلت المانيا على موقفها لاتثير صعوبات أمام انجلترا طالما لم تمس المصالح الالمانية بضرر ، وطالما كان لورد كمبرلى مخلصا فى تنفيذ آراء رئيسه روزبري، ولذا لما اعوج كمبرلى قليلا عن السنن الذي اختطه رئيسه ، وهدد بالعمل على التقرب من فرنسا، وذلك حين أبدت القنصلية الالمانية بعض المعارضة للسياسة الانجليزية فى مصر فى سنة ١٨٩٤ ، بينت الحكومة الالمانية لوزير الخارجية البريطانية بانه مخطىء فى اتباع مثل هذه السياسه فانه سينجم عنها لانجلترا متاعب لا قبل لها بها، وأنها (أي الحكومة الالمانية) تعلم أن السفير الفرنسى قد هدد انجلترا بالتقرب من المانيا نهائيا والتفاهم على مسألة الالزاس واللورين ، وأنها (أى الحكومة الالمانية) تستطيع تهديد انجلترا وإثارة مشاكل معقدة لها فى مصر بتأييد سياسة فرنسا ، وتستطيع بعد ذلك التفاهم مع الفرنسيين فيما يختص بحدود الرين ، فما كان أمام وزير الخارجية الانجليزية إلا الاسراع فى التراجع، ولذا فهو يضطر الى تغيير موقفه وتحسين لهجته مع الحكومة الالمانية بل وشكرها على موقفها العام إزاء انجلترا فى مصر (١). نتيجة لذلك أصدرت الحكومة الالمانية الى قنصلها العام في مصر بارون فون هايكنج von Heyking بتعليمات توجه فيها نظره بالا يعارض سياسة انجلترا وألا ينضم الى اعدائها فى المستقبل الا اذا جاءته أوامر من حكومته تفيد ذلك.

(١) الوثائق الالمانية مارشال الي هاتسفلت ٢ مايو سنة ١٨٩٤

وكان يهم المانيا فى ذلك الوقت بقاء مسألة مصر معلقة ومعقدة وموضع تنازع شديد بين انجلترا وفرنسا حتى تري الحكومات الانجليزية ضرورة المحافظة دائما على صداقة المانيا ، كما كان يهم المانيا ألا تؤيد سياسة انجلترا على طول الخط حتى لا تعتبر انجلترا ذلك واجبا يجب أن تؤديه المانيا باستمرار نحوها ولكن ينبغى أن تكون سياسة المانيا نحو مصر — كما يري الساسة الالمان من القيصر الى المستشار كابريفى الى وزير الخارجية مارشال — يجب أن تكون سياسة المانيا بصفة عامة غامضة مبهمة لا تعرف انجلترا حدودها ولا منتهاها ولا مقاصدها ، وأن تقوم بتأييد السياسة الانجليزية فى للمناسبات المختلفة على حسب ما تملي المصالح الالمانية ومصالح دول التحالف الثلاثي(١) وأن تتخذ المانيا من مسألة مصر وسيلة لتسوية حسابها مع انجلترا في المسائل الاوربية والمسائل الاخرى التى تهمها .

ولذا لم يتورع القيصر الالمانى عن تهديد انجلترا بمعارضة سياستها فى مسألة مصر اذا لم تحل مسألة الكنغو حلا مرضيا لالمانيا ، وتم للقيصر ما أراد . «فمصر ، كما يقول بارون فون روتنهام فى وزارة الخارجية الالمانية ، كبلغاريا بالنسبة لنا، ليست غاية سياسية فى حد ذاتها ، ولكنها وسيلة لتنظيم علاقات المانيا مع الدول الاوربية (وخاصة انجلترا) بطريق تتفق والمصالح الالمانية» . ولذا لا يهم ألمانيا القيصرية فى ذلك الوقت أن يشتجر الخديو عباس الثاني فى نزاع مستعر مع لورد كرومر، ولا يهمها من يكون المنتصر منهما ، ولا يهمها اذا كان الرأى العام المصرى قد نما شعوره بالقومية ، ولا تكترث لأمانى المصريين فى الاستقلال اذا تعارض هذا مع المصالح الالمانية ، وانما يهم المانيا قبل كل شيء أن تكون صديقة لانجلترا ، وأن تقوم مشاكل معقدة فى مصر لاتستطيع انجلترا حلها وحدها فتضطر إلى طلب المعونة من المانيا والانصراف عن الوفاق الثنائى الفرنسى الروسى.(٢)

(١) نفس المصدر روتنهام Rothenham . وزارة الخارجية الالمانية الى بارون فون هايكنج ٥ يوليو سنة ١٨٩٤ .

(٢) الوثائق الالمانية — بارون فون روتنهام الي بارون فون هايكنج .

وحين قررت الحكومتان المصرية والانجليزية استرجاع السودان والقضاء نهائيا على ثورة المهديين الدراويش انتهز القيصر الالمانى هذه الفرصة لتأييد انجلترا تأييدا تاما ضد فرنسا . هددت فرنسا وثار الرأى العام الفرنسى واندرت الحكومة الفرنسية بالحرب ، ولكن التأييد الألمانى قوي من مركز انجلترا بدرجة جعلتها تتحدي فرنسا وتقوم بتنفيذ أغراضها وارسال الحملة آمنة مطمئنة . وافق القيصر الألماني أولا على أن تقوم المالية المصرية بنفقات الحملة الى دنقلة الا أنه رفض رفضا تاما مشروع سولسبرى الذي يرمى الى تقسيم الدولة العثمانية وانفراد الانجليز بمصر ، فالقيصر صديق الدولة العثمانية فى ذلك الوقت ولا يبغى انحلالها ، وأيد القيصر وزارة سولسبرى فى مسألة استرجاع السودان لأنه كان يعمل على إزالة الاثر السيء الذى أحدثته برقية كروجر فى انجلترا ، هذه البرقية التى أثارت الحكومة الانجليزية والرأي العام الانجليزي ضد المانيا . ولأنه كان يخشي أنه اذا لم تؤيد الحكومة الالمانية انجلترا فى مسألة السودان ربما دعا ذلك الموقف انجلترا إلى التفكير فى تغيير سياستها نحو المانيا ، وتعضيد الفريق القائل بضرورة إصلاح العلاقات الانجليزية الفرنسية والانضمام الى الوفاق الثنائى الفرنسي الروسى ، لا سيما وأنه أى القيصر يعلم جد العلم أن لورد سولسبري ولو أنه ميال الى مجاملة المانيا والى تأييد سياستها الأوربية والاستعمارية الا أنه غير ميال إلى تجديد اتفاقية البحر الأبيض مع ايطاليا صديقة المانيا ، الاتفاقية التى عقدت فى سنة ١٨٨٧ ، هذه الاتفاقية التي كانت ضمانا كبيرا لنفوذ دول التحالف الثلاثى فى البحر الابيض المتوسط ، كما أن القيصر يعلم أن سولسبري يود لو استطاع تحسين علاقاته بفرنسا والاتفاق علي تسوية المسائل المختلف عليها بينهما .

وكان تأييد المانيا لانجلترا فى نظر القيصر ضروريا جدا من ناحية أخري ، وذلك لخدمة أصدقائه الايطاليين الذين انهزموا هزيمة منكرة أمام الاحباش فى موقعة عدوه

فلقد كان القيصر دائم الاتصال بانجلترا يحاول اقناعها بضرورة اغاثة الايطاليين حلفائه ، ولذا حاولت وزارة سولسبرى تبرير الحملة الى السودان أمام دول التحالف الثلاثى، المانيا والنمسا وايطاليا، برغبة انجلترا فى نصرة الايطاليين المدحورين قبل أن يؤخذوا أخذا وبيلا .

وبالرغم من الاتفاق الودي الذى تم بين انجلترا وفرنسا فى سنة ١٩٠٤ بشأن مصر ومراكش، ذلك الاتفاق الذى أطلق يد الانجليز حرة فى مصر ، واعترفت فيه فرنسا بالاحتلال الانجليزي ، ولم تعد انجلترا فى كبير حاجة الى تأييد المانيا السياسى — بالرغم من ذلك فقد ظلت العلاقات الانجليزية الالمانية بالنسبة لمصر بصفة عامة جيدة ، فلم تعمل المانيا من جانبها على احراج مركز الانجليز فى مصر ، وذلك خشية زيادة توثق العلاقات الفرنسية الانجليزية، فلقد كانت السياسة الالمانية الخارجية ترمى الى الفصل بين الدولتين بكل الطرق الممكنة . كذلك لم تبد المانيا حماسا كبيرا لمشاريع الانجليز ، ومن ناحية ثالثة كان اهتمام المانيا فى ذلك الوقت منصرفا عن مسألة مصر موجها الى السياسة العالمية Weltpolitik الى المسائل التي تهم المانيا مباشرة مسائل آسيا الصغرى والعراق حيث كانت المانيا تعمل على مد نفوذها الى الخليج الفارسى ، مسائل الشرق الاقصى وخاصة بعد الحرب الروسية اليابانيه ، هذه الحرب التى اندحرت فيها روسيا والتي أخذت بعدها اليابان تتزعم شرق آسيا، ثم هناك مسائل البلقان التى أخذت تنذر باصطدام خطير بين دوله الناشئة، وبتنازع بين حليفة المانيا النمسا وبين روسيا

وظل موقف المانيا واحدا لا يتغير حتى قامت الحرب الاوربية الاولى وأعلنت انجلترا زوال سيادة تركيا وبسطت حمايتها على مصر فكان من الطبيعى ألا تعترف المانيا بذلك التغيير فى مركز مصر ولا فى مركز الانجليز فى مصر ، ذلك التغيير الذى لا يبرره عرف دولى ولا قانون سياسى أخلاقى ، ظلت المانيا على رأيها في أن

مصر جـزء من الدولة العثمانية وأيدت الأتراك فى محاولاتهم اليائسة غزو مصر من الشرق وطرد الانجليز منها . إلا أن انهزام الألمان فى الحرب واضطرارهم إلى قبول معاهـدة فرساى أرغمهم على الاعتراف بالحماية الانجليزية على مصر ، ولما أعلنت انجلترا انتهاء الحماية وتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ كانت المانيا من الدول التى اعترفت بالمركز الجديد لمصر كدولة مستقلة وتبادلت التمثيل السياسي معها .

محمد مصطفى صفوت
الاستاذ المساعد للتاريخ المعاصر

المراجع

لا توجد فى ذلك الموضوع بالذات فى ثنايا الدراسات التاريخية للمسألة المصرية فى الربع الاخير للقرن التاسع عشر الا اشارات لا تغنى كثيرا .

هذا البحث قائم على دراسة مركزة للوثائق السياسية التى أصدرتها الحكومة الالمانية عقب الحرب الكبرى الاولى والمسماة

Grosse Politik der Europaischen Kabinette

وهى تمتد خلال المدة من سنة ١٨٧٠ الى سنة ١٩١٤ . وعلى هذه الوثائق يعتمد البحث الى حد كبير وأشرت اليها خلاله «بالوثائق الالمانية» فحسب .

وتكمل هذه الوثائق مجموعة الوثائق السياسية التي نشرتها الحكومة الفرنسية بعد الحرب الكبرى الاولي والمسماة : Documents Diplomatiques Français وهى تشمل نفس المدة التى تشملها الوثائق الالمانية .

ويلى هاتين المجموعتين فى الاهمية الوثائق التى نشرتها الحكومة الانجليزية فى الكتب الزرق Blue Books فى خلال المدة ما بين حرب السبعين سنة ١٨٧٠، وسنة ١٩١٤، هذه الكتب الخاصة بالمسائل المصرية. وهى لاتشتمل على عدد كبير من الوثائق الخاصة بموقف المانيا ازاء الاحتلال . اهم هذه الكتاب الازرق الكتاب لسنة ١٨٨٢ ، ثم هناك وثائق نشرتها وزارة الخارجية الفرنسية فى الكتب الصفر Livres Jaunes وخاصة الكتاب الاصفر للسنين ما بين ١٨٨٣ — ١٨٩٣ فهو يبين موقف فرنسا ازاء المسألة المصرية وتشير بعض وثائقه الى موقف المانيا .

ولا ريب فى أن وثائق وزارة الخارجية الانجليزية فى لندن تلى فى الاهمية الوثائق الالمانية فيما يختص بهذا الموضوع لا سيما الوثائق الخاصة بتركيا F. O. 78 وفرنسا F. O. 27 والمانيا F. O. 64 ، ولقد أطلعت على كثير من هذه

الوثائق أثناء وجودى فى انجلترا . ولعل أهم هذه الوثائق الرسائل التي أرسل بها السفير الانجليزي فى برلين Lord Odo Russell الى حكومته ، ولقد أشار الى بعض هذه الرسائل ونشر بعضها Winifred Tuffs فى رسالته للدكتوراه من جامعة لندن An Ambassador to Bismarck : Lord Odo Russell. Muller, London, 1938 ولقد فصل مؤلف هذا البحث بعض أجزاء ذلك الموضوع في كتاب يعده للطبع عنوانه موقف الدول العظمي ازاء الاحتلال الانجليزي لمصر.

وهناك بعض الكتب التى كتبت عن حياة سياسيي ذلك العصر أهمها فيما يختص بهذا البحث

Bismarck: Some Secret Pages of his History. A diary by Dr. Moritz Busch. 3 vols. (Translation, Macmillan London 1898.

Bismarck: The Man and Statesman. Reflections and Reminiscenes of Otto Prince von Bismarck. Trans by A.J Butler 2 vols. Smith. London, 1898.

Disraeli, Life of, by Buckle Murray. London 1929.

Gladstone, Life of, by J. Morley. 2 vols.

Granville, Life of, by Edmond Fitz maurice (4th impression) Longmans, London 1905.

ومن الكتب والدراسات التى لها قيمة فى هذا البحث والتى درست العلاقات الدولية بالنسبة لمسائل البحر الابيض للتوسط

Knaplund, P.: Gladstone and Britain's Imperial Policy, Allen and Uniwin London 1927.

Langer, W.: Alliances and Alignments. New York 1931.

Mitchell P. B.: The Bismarckian Policy of Conciliation with France. University of Pennsylvania Press, Philadelphia 1935.

Penson L.: The Principles and Methods of Lord Sabsbnry's Foreign Policy, Cambridge Historical Journal 1935.

Penson and Temperley: A Century of Diplomatic Blue Books, Cambridge University Press, Cambridge, 1938.

Safwat M. M.: Tunis and the Great Powers. Baganis Alexandria 1943.

Schuman F. L.: International Politics. 2nd Edition Mc Graw Hill, New York 1937.

Seton-Watson R.W.: Disraeli and Gladstone and The Eastern Question Macmillan. London. 1935.

Sumner, B.H.: Russia and The Balkans. Clarendon Oxford. 1937.

محمد مصطفى صفوت